صوت من العالم الآخر

للأستاذ نجيب محفوظ

— ٢ —

غمرني شعور عجيب بأني فارقت الحياة ، وأني لم أعد من أهل الدنيا ، ماذا حدث ؟ ! وما الذي تغير فيّ ؟ ! مازلت في الحجرة . والحجرة كما كانت ، فأبي وزوجي تحنوان على جسمي ، ولكن حدث شيء بلاريب ، بل أخطر الأشياء جميعاً . لم أوخذ على غرة . ولو كان بي قدرة على الكلام لأجبت زوجي — حين سألتني « توتى ... ماذا تجد ؟ » بأني أموت . ولكني فقدت قدرتي على الكلام وغيره . فلم أوخذ على غرة كما قلت ، وشعرت بزورة الموت كما يشعر المضطجع بديبب الكرى وتحدر النعاس . ثم رأيته جهرة . والذي لاشك فيه أن الموت ليس مؤلما ولا مفزعا كما يتوهم البشر ، ولو عرف حقيقته الحيّ لنشده كما ينشد نشوة الخمر المتقة ، وفضلا عن هذا وذاك فلا يخامر المحتضر أسف ولا حزن بل الحياة تبدو شيئاً تافها حقيراً إذا ما تخايل في الأفق ذاك النور الآلهي البهيج . كنت مكبلا بالاغلال فانفكت أغلالي . كنت حبيساً في قمقم فانطلق سراحي . كنت ثقيلا مشدوداً إلى الأرض فخلصت من ثقلي وأرسلت وثاقي . كنت محدوداً فصرت بغير حدود . كنت حواسّ قصيرة المدى فانقلبت حسا شاملا كله بصر وكله سمع وكله عقل ، فاستطعت أن أدرك في وقت واحد ما فوق وما تحتي وما يحيط بي ، كأنما هجرت الجسم الراقد أمامي لأتخذ من الكون جسماً جديداً . حدث هذا التغيير الشامل الذي يجل عن الوصف في لحظة من الزمان ، بيد أني ما برحت أشعر بأني لم أغادر الحجرة التي شهدت أسعد أيام حياتي السابقة . كأن العناية وكلتني بجسمي القديم حتى ينتهي إلى مستقره الأخير ، فجعلت أتأمل ما حولي في سكون وعدم اكتراث . وقد غشى جو الحجرة حزن وكآبة ، وأخذت أمي وزوجي تتعاونان على إنامة جسمي على الفراش ، ثم قبلت زوجي جبيني . ولثمت أمي قدمي ، ونادتا أبنائي والخدم . وراحوا جميعاً يعولون وينتحبون ، رأيت جسمي — صاحبي القديم — بملامحه المعهودة راقداً لا حراك به ، وقد ابيض لونه وشابته زرقة وتراخت أعضاؤه وأطبق جفناه ، ومضى الحاضرون يسكبون عليه الدمع الغزير يكادون يهلكون كمداً وحزناً وغما . ومضيت أنظر اليهم بعدم اكتراث غريب كأنه لم تربطني بهم يوما آصرة قربى ! ما هذا الجسم الميت! لماذا تصرخ هذه المخلوقات ؟ ما هذا الأسى الذي جعل من سحنهم دمامة شوهاء ! كلا لم أعد من أهل هذه الدنيا ، ولم يردني إليها صراخ أو بكاء ، ووددت لو تنقطع أسبابي بها لأحلق في عالمي الجديد . ولكن وا أسفاه ، إن بقية من حريتي لم تزل عزيزة عليّ ، أسيرة إلى حين . فلأخذ نفسي بالصبر وإن شق عليّ . وجاءت أمي بملاءة وسجت الجثة ، ثم أخرجت العيال والخدم ، وأخذت زوجي من يدها ، وغادرتا الحجرة ، وأغلقتا الباب . لم يغيبا عن ناظري لأن الجدران لم تعد حائلا يحجب شيئاً عن بصري ، فرأيتهما وهما تغيران ملابسهما وترتديان السواد ، ثم اتجهتا نحو فناء الدار وهما تحلان من ضفائرهما وتحثوان التراب على رأسيهما ، وخلعتا النعال وهرعتا إلى باب الدار ، وانطلقتا تصوتان وتلدمان ، ومضت أمي تصرخ « وا إبناه » فتصرخ زوجي « وا زوجاه » ثم تهتفان معا « يا رحمتا لك يا توتى المسكين ! خطفك الموت ولم يرحم شبابك » وتركتا الدار على تلك الحال من العويل والنواح ، وأخذتا في طريقهما ، حتى إذا مرتا بأول دار تليهما برزت لهما ربة الدار في ارتياع وصاحت بهما : « ما لكما يا أختاي ! » فأجابت المرأتان « خربت الدار، وتيتم الصغار، وثكلت الأم، وترملت الزوج، يا رحمة لك يا توتى ! » فصوتت المرأة من أعماق صدرها وصاحت « واحر قلباه ... يا خسارة الشباب ... يا ضيعة الآمال ... » وتبعت المرأتين وهي تحثو التراب على رأسها وتلطم خديها ، وكلما مررن بدار برزت ربتها وانضمت إليهن ، حتى انتظم الحشد نساء القرية جميعاً ، وتقدمتهن امرأة دربة بالنياحة ، فجعلت تردد اسمي وتعدد فضائلي ، وذهبن يقطعن طرقات القرية باعثات الحزن والأسى في كل مكان . هذا اسمي تردده النائحات ، ما له لا يحركني ؟ !

أجل ، لقد صار الاسم غريباً غرابة هذه الجثة المسجاة ، وبت أتساءل : متى ينتهي هذا كله ؟ متى ينتهي هذا كله ؟ ! وعندما

أتى المساء جاء الرجال وحملوا الجثة إلى بيت التحنيط والصراخ يطبق علينا ، ووضعوها على السرير بالحجرة المقدسة . كانت الحجرة مستطيلة ذات اتساع كبير ، وليس بها من نافذة إلا كوة تتوسط السقف ، وفي الصدر قام السرير ، وعلى الجانبين رفعت رفوف رصت عليها أدوات الكيمياء ، وفي الوسط — تحت الكوة — حوض كبير ملىء بالسائل العجيب ، وخرج الرجال فلم يبق إلا رجلان ، وكان الرجلان حكيمين من المشهود لهما في فنهما ، فأخذا في عملهما دون إبطاء ، وقد جاء أحدهما بطست ، ووضعه على كثب من السرير ، ثم تعاونا معاً على تجريد الجثة من ملابسها حتى بدت عارية لا يحجبها شيء . فعلا ذلك في هدوء وعدم اكتراث ، ثم قال الذي جاء بالطست وهو يغمز عضلات صدري وذراعي : « كان رجلا قوياً ... انظر ! » ؛ فقال الآخر : « كان توتى من رجال الأمير ، يؤاكله ويشاربه ، وفضلا عن ذلك ، فقد خاض غمار الحروب ! » ؛ فقال الذي جاء بالطست متحسراً : « لو أن الأجسام تعار ! » ؛ فأجابه الآخر ضاحكا : « أيها العجوز ، ما جدوى جسد ميت ؟ ! » ؛ فقال وهو يهز رأسه : « كان قوياً حقاً ! » ؛ فقال الآخر ضاحكا وهو يتناول خنجراً طويلا حاداً من أحد الرفوف : « فلنختبر قوته ! » وطعن الجانب الأيسر فيما يلي الصدر بخنجره ، حتى غاب نصله ، وشقه حتى أعلى الفخذ ، وأعمل في الداخل يده بمهارة ودربة ، ثم استخرج الأمعاء والمعدة ، وأودعها الطست ، وفقاها بالكبد والقلب ، فسرعان ما رأيت باطني جميعاً ، ولم يستغرق ذلك إلا دقائق معدودة ، فالرجل من مهرة المحنطين الذين أتقنوا عملهم أيما إتقان ، ورحت أنظر إلى باطني بعناية ، وبخاصة إلى معدتي التي عرفت بقوتها ونشاطها ، ولم يحل غلافها دون رؤية ما بداخلها بفضل تلك القوة السحرية التي اكتسبها بصري ، فرأيت فيها مضغ الأوزة والتين وبقايا النبيذ التي تناولتها على مائدة الأمير مساء الأمس ، وذكرت قوله حين عزم عليّ بالطعام « كل يا توتى واشرب ، وتمتع بالحياة أيها الرجل الأمين ! » ... رأيت وذكرت دون أن يعروني أي تأثر أو انفعال ، ودون أن يزايلني عدم الاكتراث العجيب ، ثم حولت بصري إلى قلبي فرأيت عالما حافلا بالعجائب . رأيت بشغافه آثار الحب والحزن والسرور والغضب ، وصور الأحبة والرفاق والأعداء ، وقد ترك الهيام بالمجد به بقوة عمقها ما حفلت من معارك في بلاد زاهي والنوبة ، ولاحت على رقعته مشاهد مروعة لميادين القتال ، وأجزاء ملتهبة دامية من أثر ذلك الطعم العنيف الذي بعثني للكفاح بلا رحمة حتى ضممت إلى أرض أسرتي قطعة أرض تجاورها نازعني عليها جار بضع سنين . رأيت فيه جل حياتي وما غايت من الاهواء ، أما الرجل فمضى في عمله بخدوه الهدوء والران ، فأتى بكلاب دقيق وأولجه في أنفي باحتراس حتى تمكن من هدفه ، ثم وجهه بدراية وعنف وجذبه بسرعة ، فسال مخي الكبير من منخري مادة رخوة تذرو في الهواء ما تجمع فيها من لوامع الفكر ولآلىء الآمال ودخان الأحلام . هذه أفكاري منقوشة أمام عيني ، فاذا قارنتها بنور الحق الذي يتخايل لروحي بدت تافهة مشوهة ، لقد قاتلها المثوى الذي آوت إليه : رأسي ومخي ، ها أنذا أقرأ القصيدة التي صغتها في وصف قادش ! وهاهي ذي الخطب التي ألقيتها بين يدي الأمير في المناسبات المختلفة ، وهذه آرائي في آداب السلوك ، وهذه الحكم التي حفظتها عن حقائق النجوم كما جاءت في كتب قائمنا ! كل أولئك أزاحه الرجل مع فتات المخ فاستقر بين الأمعاء والمعدة في الطست الذاهي ، غير مأتاثر على الأرض فداسته الأقدام . قال الحكيم وهو يعيد الكلاب إلى موضعه « الآن صارت الجثة نظيفة ! » فقال صاحبه ضاحكا « ليتك تجد بعد موتك يداً ماهرة كيدك ! » وحمل الحكيمان ما تبقى من جسمي إلى الحوض الكبير ، وأناماه فيه ، فامتلأ بالسائل الساحر وغرق فيه ، ثم غسلا أيديهما وغادرا المكان ، وقد أدركت أن الحجرة لن يعاد فتحها قبل كرور سبعين يوماً — مدة التحنيط — فمضى الجزع ، ووقع في نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم لألقي عليه نظرة الوداع ...

(القصة بقية)

نجيب محفوظ

اقرأوا مجلة :

الأيام

في صباح كل يوم اثنين